

حين سجد المشركون!!

لما فشلت قريش في هذه مفاوضاتها مع عم رسول الله ﷺ، ولم توفق في إقناع أبي طالب بمنع رسول الله ﷺ وكفه عن الدعوة إلى الله، قررت أن يختار سبيلاً قد حاولت تجنبه والابتعاد منه مخافة مغبته وما يقول إليه، وهو سبيل الاعتداء على ذات الرسول ﷺ.

كان الرسول ﷺ واقعاً تحت ضغوط كثيرة متزامنة في مكة، فقد فهو في حماية قبيلة بني نوفل وليس بني هاشم، وفوق ذلك فهو تحت ضغط سخرية الناس وعدم تصديقهم لأمر الإسراء؛ ومع ذلك فقد استمر رسول الله ﷺ يدعو إلى الله تعالى، بل طوّر ذلك تطويراً غير مسبوق!

لقد قام رسول الله ﷺ بأمر لم يقم به ولا مرة حتى هذه اللحظة من أول تاريخ البعثة، وهو قراءة سورة كاملة من القرآن الكريم على أسمع الجميع من المسلمين والمشركين، وكانت هذه السورة هي سورة النجم، وكان المكان هو أكثر أماكن مكة ازدحاماً بالناس، وهو البيت الحرام!

قرأ الرسول ﷺ السورة، وكأنه يقرأ بياناً تحذيرياً إلى مشركي قريش، فالسورة فيها من القوارع ما فيها، ولم يقدر على مقاطعته أحد، ويا ليتنا نتصور هذا الموقف، و الرسول ﷺ يقرأ القرآن بصوته العذب، وخشوعه الكامل، وفهمه العميق لكل حرف، ثم الجميع حوله يُنصت، وكأن على رؤوسهم الطير!

قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ [١] فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأُوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أُوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١-١٢].

وقد أخذ المشركون بروعة الآيات والكلمات، وُهمروا بهذا الكلام الغريب العجيب، الذي لا يقدر عليه بشر، فلم يُحَرِّكوا ساكناً، ونزلت الآيات نوراً يفتح قلوبهم، وخرست الألسنة، وتسمرت الأقدام، وتعلقت العيون برسول الله ﷺ، والسورة تشرح للمشركين قصته ﷺ بإيجاز: إنه صاحبهم الذي يعرفونه، ويعرفون نسبه وشرفه وصدقه وعفافه، وهو لا يتكلم معهم بهواه إنما يأتيه ملك الوحي من السماء؛ هذه هي الحقيقة المجردة التي أخبرت بها السورة أهل

مكة عن طبيعة الرسول ﷺ ومهمته، ومن ثم وضعت القوم في حرج شديد؛ إذ لماذا إذن يُكذِّبونه ويجادلونه وهو ليس إلا رسول يحمل لهم رسالة من الله؟!

ثم أخذ رسول الله ﷺ يُكمل قراءته بصوتٍ قوي يُحذِّر من اتباع آلهة مزعومة لا قيمة لها، ويُحذِّر كذلك من أن ينسب أحدٌ شيئاً إلى الله سبحانه عن غير علم:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ [٢] * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

ومع أن الآيات تُهين آلهة قريش، وتحقر من شأنها، فإن المشركين لم يتكلموا بكلمة واحدة؛ بل ظلُّوا يستمعون القرآن مبهورين انبهاراً كاملاً، وتمضي الآيات تكشف عن خبايا المشركين، وتفضحهم أمام أنفسهم، وتوضح جرماتهم الشنيعة يوم أشركوا بالله ربِّ العالمين؛ قال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى [٣] * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ * أَمْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٣-٤١].

ثم أكمل رسول الله ﷺ قراءته للسورة وهي تشرح صفة الإله القدير الذي نعبد، كما توضح عاقبة الأقوام الذين كذبوا قبل أهل مكة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ [٤] * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ [٥] * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَىٰ * وَالْمُؤَنَفِكَةَ [٦] أَهْوَىٰ [٧] * فَغَشَّاهَا مَا عَشَّىٰ * فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ [٨]﴾ [النجم: ٤٢-٥٥].

ولك أن تتخيل شعور المشركين وهم ينتظرون قارعة أو خسفاً من الله سبحانه، وهم مرتعبون من عقاب الله المنتظر، وقد سمعوا تهديده وتعنيفه لهم، ودكره الصريح بأن هذا نذير لهم، كما أن الآيات أظهرت عجزهم الفاضح أمام إله عظيم بيده كل شيء، وقادر على إهلاك أمم عظيمة كانت أشدَّ منهم قوَّة، وأعظم بأساً.

ثم تسارعت وتيرة الآيات، وعلت النبرة بشدة!

قال تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى * أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [٩] * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَقِمْنَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجُّبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ [١٠] * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٥٦-٦٢].

إن الآيات تحثهم على الإسراع بكل طاقة ممكنة؛ فليس هناك وقت أيها المشركون! لقد أزفت الآزفة، وقد لا يتوفّر لكم وقت للتوبة أو الرجعة، فأدركوا أنفسكم! إن جريمتكم هائلة؛ فأنتم أهل اللغة والبلاغة والأدب، وتعلمون أن هذا الحديث جدّ لا هزل فيه، صدق لا كذب فيه، حق لا باطل فيه، فما لكم تضحكون منه، وتسخرون من حامله لكم؛ بينما الأجدر بكم أن تبكوا على حالكم، وأنتم لاهون معرضون!

كان المشركون يقولون في قرارة أنفسهم: ماذا نفعل؟!!

كان هذا هو السؤال الحائر الذي تردّد في أذهان كل المشركين الحاضرين!

حينها وجدوا رسول الله ﷺ يسجد، ويسجد معه المؤمنون، فعلموا أن المخرج الوحيد من نزول عقاب الله الباطش بهم أن يسجدوا مع رسول الله ﷺ، لعلّ هذا يعصمهم من العذاب، فسجدوا جميعاً في سابقة ليس لها مثيل في التاريخ!

وهي أن يسجد الكفار مع المؤمنين في لحظة واحدة مع رسول واحد!

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ»

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ النَّجْمَ بِمَكَّةَ فَسَجَدَ فِيهَا وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ، غَيْرَ شَيْخٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصَى أَوْ تُرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَى جَبْهَتِهِ، وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا. فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا» والشيخ المشرك الذي لم يسجد هو أمية بن خلف؛ صرّح بذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: «أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ: وَالنَّجْمِ، فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ»

أفاق المشركون من صدمتهم وهم سجود، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

ماذا فعل المجرمون؟!

هل رجعوا إلى أنفسهم لحظة!

-للأسف- كانت لحظة عابرة، لا أثر لها في القلب ولا في الجوارح، وكان حالهم كحال قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما أقام الحجة عليهم، ففهموا الحقيقة للحظات قليلة، ثم فروا عنها عامدين؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٥].

قام المشركون من سجودهم أشدَّ كفرًا وعنادًا، بل قاموا كذابين أفاكين يفترون على الله ورسوله الكذب، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال عند ذكره لأصنامهم اللات والعزى ومناة مدحًا لها تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وتنزه رسوله الكريم ﷺ عما أرادته المشركون تنزيهاً عظيماً.

لقد كانت مقولة كاذبة سخيفة قالوها ليُبَرِّروا لأنفسهم -ولكن لم يحضر المشهد المهيب معهم- سرَّ سجودهم مع محمد ﷺ.

لقد كان سجود المشركين بهذه الصورة الجماعية نورًا عظيمًا باهرًا من أنوار العام الخامس من البعثة، ورفع معنويات المسلمين، ودعم موقف رسول الله ﷺ، وأخرج المشركين إخراجًا بالغًا، وعرف بالإسلام والقرآن أعظم تعريف، ولا شك أن كل ذلك أورث سعادة في قلب رسول الله ﷺ والمؤمنين، فله الحمد والمِنَّة.